

وهذه قطع من الجبال مختلفة ألوانها متباينة أحجامها، قد أقبلت من بعيد، كأنما قذفتها المجانيق تريد أن تدمر بها المدينة تدميرًا، وهي تمضي في الفضاء مسرعة على ضخامتها كأنها السهام الرقاق حتى لا يشك من يراها في أنها تحمل الموت والدمار، وفي أن قطعة منها يكفي أن تهوي إلى الأرض فتسحقها سحقًا، وتمحق ما عليها ومن عليها محقًا، ولكنها على ذلك لا تكاد تدنو من المدينة حتى تجمد في مكانها من الجو كأنها قد شُدَّت إلى السماء بأمراس الكتان كما يقول الشاعر القديم؛ فهي لا تقبل ولا تدبر ولا ترتفع ولا تنخفض، وإنما تظل معلقة مكانها كأن كل قطعة منها ظلة هائلة قد علقت في الجو لترد عن أهل الأرض حر الشمس.

وهذه الأرض تنشق عما أضمرت، وتنفجر فيها ينابيع من اللهب هنا ومن الماء هناك، وترتفع هذه الينابيع المحرقة وتلك الينابيع السائلة في السماء إلى حيث لا يستطيع البصر أن يتابعها في الارتفاع، وإنما يرد عنها خاسئًا وهو حسير، ولكنها على ذلك لا تحرق شيئًا ولا تغرق شيئًا؛ وإنما تمضي وتمضي في ارتفاعها، وتمضي وتمضي في اتساعها، ثم تتضاءل قليلًا قليلًا، وإذا هي تهبط ثم تهبط، وتضيق ثم تضيق حتى تعود هزيلة نحيلة إلى فوهتها التي خرجت منها، ثم تنضم عليها الأرض كأن لم تكن شيئًا لتنشق عن مثلها في مكان آخر.

وعلى هذا النحو يضطرب الجو والبر والبحر أروع اضطراب وأشدّه هولًا، دون أن يحدث عن ذلك ما يؤدي أو يسوء.

وهذه جماعات الرعية من الجن كان يملؤها الروع منذ حين فجعلت تملؤها الروعة الآن. كانت تجأ بالاستغاثة والضراعة آنفًا، فهي تجأ بالرضا والإعجاب والافتتان الآن. وهذا الملك ينظر إلى ابنته نظرات إن صورت شيئًا فإنما تصور ذهول الحائر الواجم الذي عجزت نفسه عن التفكير وانعقد لسانه عن القول؛ فهو قائم مبهور في مكانه ومن حوله وزراؤه في مثل حاله كأنهم التماثيل.

وهؤلاء قادة الجيش قد أقبلوا لا يدرون أيرضون أم يسخطون، فهم يرون ما يرون من الهول، ويحسون أنهم لا يلقون منه كيدًا، وفيهم مع ذلك حماسة الجند المستبسلين؛ فكلهم كان يود لو يبلي بلاء ويسجل لنفسه بالانتصار أو الموت فخراً يتحدث به أعقابهم بعد آلاف السنين، ولكنهم مع ذلك قد وجدوا أنفسهم وجنودهم عاجزين كل العجز عن أن يقدموا حين كان يجب الإقدام؛ يريدون أن يتقدموا إلى أمام فلا يجدون إلى ذلك سبيلاً كأنهم قد نُبِتُوا في الأرض تثبيتًا، فإذا أرادوا أن يتراجعوا إلى وراء وجدوا ذلك هيئًا ميسورًا.